محمود أمين العالم
وجدران الزنزانة

النضال من أجل المبدأ.. يعلى من قيمة الإنسان.. والثبات على الموقف يؤكد إنسانيته.

وقد نختلف على المبدأ والموقف.. ولكن الأمر الذى لا نختلف عليه هو الحفاظ على الكرامة مهما عانى الإنسان من صعوبات.

وكثيرا ما يضعف الإنسان أمام مغريات السلطة فيبدل جلده.. ويرتضى أن يتلون كما تشاء السلطة.. ومثل هذا الإنسان يفقد قيمته فى نظر التاريخ.

ووقفتنا الآن مع نموذج مناضل.. قضى فترات طويلة داخل جدران الزنازين.. لعل ذلك يفت من قوته.. ويضعف من تحمله.. لكنه ظل بإرادة وعزيمة مخلصاً لفكرة الإنسان الباحث عن الحرية والعدالة.

ووقفتنا الآن مع المفكر الشاعر محمود أمين العالم المولود فى 18 فبراير عام1922 والراحل فى 10 يناير عام 2009 عن سبعة وثمانين عاماً.

والعالم ولد فى حي الدرب الأحمر بالقاهرة.. وتلقى مبادئ اللغة العربية والدين فى كتاب الشيخ السعدني.. ثم دخل مدرسة النحاسين فمدرسة الإسماعيلية الثانوية.

والتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة ـ قسم الفلسفة ـ وحصل على الليسانس.. وتقلب فى وظائف عدة فى التربية والتعليم ـ ثم فى كلية الآداب حتى أصبح مترجماً ومنظم محاضرات بالكلية.

ونال الماجستير فى موضوع (فلسفة المصادفة الموضوعية فى الفيزياء الحديثة ودلالاتها الفلسفية).. وعين فى قسم الفلسفة بالكلية.

ويأتي عام 1954 ليكون بداية رحلة مختلفة تماماً عن حياة الاطمئنان والهدوء.

فى هذا العام صدر أمر بفصله من عمله مع عدد آخر من أساتذة الجامعة لأسباب سياسية.

وتمضى الأيام.. ويلتحق بروز اليوسف.. ثم يستدعيه أنور السادات حينما كان رئيساً لدار التحرير.. ويعرض عليه هو وأحمد حمروش أن يعملا معه فى الجمهورية.

وفى عام 1956 يقع العدوان الثلاثي.. ويحاول الصديقان العالم وحمروش إصدار جريدة يومية باسم (المعركة) من دار التحرير لكنها لم تر النور.. فقد صودرت منذ العدد الأول.

عمل العالم بعد ذلك مديرا لتحرير مجلة الرسالة الجديدة تحت رئاسة يوسف السباعي.. وفصل من المجلة حين كتب باسم الحزب الشيوعى المصري موضوعات ضد الوحدة مع سوريا.

وفى عام 1958 يستدعيه أنور السادات مرة أخرى ويعرض عليه التخلي عن الحزب الشيوعي المصري والانضمام فى التنظيم الرسمي

للدولة.. لكنه يرفض ذلك.. مما تسبب فى القبض عليه فى يناير 1959 لتبدأ رحلة السجون والمعتقلات من أقصى مصر إلى أدناها.

اعتقل أولا فى سجن الواحات الخارجة بالوادي الجديد ثم نقل إلى سجن قراميدان بالقاهرة.. ثم القلعة.. ثم الحضرة بالإسكندرية.

واستدعى للمحاكمة العسكرية.. واستمرت المحاكمة شهراً قررت المحكمة بعدها عودته إلى السجن بالقاهرة.. لينال أشد ألوان التعذيب والبطش.. ثم نقل إلى سجن أبي زعبل.. ثم ليمان طره.. وكان هو وزملاؤه الشيوعيون يخرجون إلى الجبل لتفجير حجارته بالديناميت ثم تقطيعها إلى أجزاء صغيرة تصلح لرصف الشوارع.. وكان العمل قاسيا حتى إن بعض المسجونين قد استشهد فوق الجبل وفى مقدمتهم شهدي عطية.

وينقل مع آخرين إلى سجن الواحات ثم يصدر أمر بالإفراج عنه فى عام 1964.

بدأ يعمل بعد ذلك فى صحيفة المصور.. ثم عين رئيساً لمجلس إدارة دار الكاتب العربي.. ورئيساً لهيئة المسرح.. وحين تولى السادات الحكم.. اختلف مع سياسته فاعتقل مرة أخرى ضمن مراكز القوي متهما بالخيانة العظمي.

ويخرج من المعتقل ويهاجر إلى فرنسا ليصدر هناك مجلة (اليسار العربي) بهدف الدفاع عن الديمقراطية والوحدة العربية والتمرد السياسي والاقتصادي.

وفى أثناء وجوده فى باريس تفرض عليه الحراسة هو وأسرته وتصادر أملاكه.

وبانتهاء عصر السادات أحس العالم أن المجتمع لابد أن يتغير فعاد إلى مصر عام 1984 ليشارك فى العمل الثقافي العام.

والعالم حاصل على جائزة الدولة التقديرية عام 1998 وله مؤلفات عديدة نقدية منها:

ـ ألوان من القصة القصيرة.

ـ معارك فكرية.

ـ الإنسان.. موقف.

ـ الإبداع والدلالة.

وله ديوانان من الشعر هما : أغنية للإنسان ـ قراءة لجدران زنزانة.

وما يعنينا هنا أن العالم رأى أنه يستطيع بالشعر أن يعبر عن أفكاره كما يعبر بها عن طريق كتاباته النثرية.. وإن كان قليل الإنتاج الشعري.

ومع ذلك فإن أعماله الشعرية.. على قلتها تقف بنا على ملامح كثيرة من تجربته فى السجون والمعتقلات وهذا ما نهتم به فى هذا البحث.

نبدأ رحلتنا مع العالم مع قصيدة قصيرة بعنوان (لغة الأبواب) يقول فيها:

لا يشعر قسوة باب مغلق

إلا من عاش حياة للحب المطلق

من لا يملك أبدا أن يغلق عن قلب إنسانى قلبه

من لا يقدر أبدا أن يحجب عن إنسان حبَّه

من عاش حياة فى محنة أعداء

أو صحبة أحباب

لا يعرف أن يتعامل بالجدران

أو الأبواب

ويؤرخ العالم عام 1970 لكتابة هذه القصيدة.. ويبدو أنها كانت إحساساً أوليا بالعزلة داخل الباب المغلق.. وبين جدران صماء.. وها هو يصف لنا حلمه المقبور داخل الزنزانة فيقول:

بالأمس

ما إن فتح الباب السّجان

حتى اقتحمت قبْوى.. طفلتان

من أيام..

وأنا أنصت أنصت

لأمور تجرى خلف الباب المصمت

أتصور أحيانا أن أصابع بشرية

تعبث بالمزلاج

وتجعل من قبضته الفولاذية

أرجوحة..

منغومة طفلين..

أو أبصر أحيانا من ثغرات فى عمر الباب الكهل

نظرات عيون ذهبية

من ذا خلف الباب

يحدثنى المزلاج

ويرمقنى بحنان

من ذا خلف الباب

سوى الرهبة والسجان

ثم ينهى القصيدة قائلا:

بالأمس كانت رحلتى

ما استغرقت دقيقة

فى عمر فتحة الباب أجل

لكنها فى عمر لمحة الحقيقة

لقد رأى الطفلتين البريئتين فى دقيقة الذى سمح له فيها بإدخال الطعام.. لينظر من خلالها خارج الزنزانة وكأنه يرى عالم الجمال والبراءة.

وهى تجربة كما نرى شديدة الإحساس.. شديدة العمق تدل على رهافة الشعور.. وشدة القيد فى آن واحد.

وها هو يعزف على لحن السجن مرة أخرى.. فيقول:

هذا هو السجن إذن

لا.. بل أنا.. هذا أنا

قد صمتت إرادتى

هذا هو السجن أجل فى داخلى

بقاع سجن أو بأخلى ساحة

عجزى عن التعبير يا زنزانتى

وقدرتى.. حريتى.. انطلاقتى

لقد انتزع منه كل شئ حينما دخل السجن.. انتزعت منه إنسانيته وحريته.. وتعبيره..وصار السجن خارجه وداخله.. فتوحد به.. والتصق بجسده وعقله وقلبه.

وتقرأ للعالم تجربة أخرى مع عصفور دخل زنزانته.. وهى قصيدة بالغة التكثيف بالغة الإحساس أطلق عليها (التحدى) يقول فيها:

وجدته بجانبى مستلقيا

منقطع الأنفاس.. لا ينطق

جناحه منكسر.. وعينه جامدة

ووجه محتقن أزرق

- - - - -

عجزت أن أحرر الجناح.. أن أحرك المنقار

أن أحرَّض العينا..

حملته بين يدى مهدهدا

حاولت أن أخطو به الهوينا

وجدتنى أعجز أن أسير.. أن أحمل جثتينا

زنزانتى سد هواء راكد

كتلة صهد راقد فى كتلتينا

هل انتصرتْ إرادتها علينا وانتهينا؟

وفجأة..

عصفورى المعجز رف.. ونطق

ثم احتوانى بين جنبيه.. احتوانى وانطلق!

لوحة شعرية جديدة تماماً.. وتجربة عميقة من تجارب الشعر النادرة رسمها العالم فى قلب زنزانته الحجرية.. فكانت تحدياً لأحجارها وانطلاقا إلى النور الموعود.

ويحكى لنا العالم ليلة القبض عليه.. وكيف حققوا معهم.. يريدون أن يلصقوا به تهمة مستحيلة:

فى اليوم السادس من شهر حزيران الحزين

فى عام ألف وتسعمائة وتسع وتسعين

طرقوا بابى فى الليل كعادتهم منذ سنين

وأخذونى سجين

فى اليوم التاسع والعاشر

من ذات شهرنا وعامنا الحزين

أجلسنى أمامه محقق مدقق

مقطب رزين

وراح يستنطقنى

يستقطرنى

محاولا أن ينفذ فى ضميرى الدفين

بمنطق المخرز والسكين

وهكذا فى بدء عامنا الجديد للهزيمة

فى يومى المسيرة الكليمة

وجدتنى أساق كالبهيمة

متهما فى جريمة

ونلاحظ هنا أن الشاعر كتب هذه القصيدة فى أعقاب هزيمة 1967 لكنه يحكى لنا أن ما حدث كان عام 1996 وكأنه بهذا يتنبأ باستمرار القمع والتهديد لصاحب الكلمة والموقف.. ومن ثم أطلق على القصيدة (التهمة المستحيلة).

ويحكى العالم أن جريمته تلك تكمن فى أنه كان يظن أن بدء عامه الجديد سيسقط المطر يطهر الأرض وتشرق الشمس ويبزغ القمر.. وينزل الحكام عن موائد الحكم وتختفى المزايدات والمناقصات فى سوق البشر.

لكن المحقق لم يلتفت لكل هذا فلديه أوامر أن يساق إلى السجن.. بغض النظر عن جريمته المستحيلة.

ويكتب العالم الكثير من داخل زنزانته.. بل جعل السجن فرصة لمعرفة الذات.. ومعرفة الغير.. حتى إنه لا يجد مفراً فى النهاية كما يقول:

هل أضيف نفسى للجدران

أضفتها

بهذه القصيدة المقروءة.. القارئة

ويؤرخ هذه القصيدة أيضا (يوليو 1971)

هكذا فجرت تجربة الاعتقال والسجن رؤى فريدة لدى محمود أمين العالم.. وقد آثرنا هنا أن نذكر أهم قصائده التى كتبها ما بين (70و1971) وهى أشق وأصعب فترة قضايا العالم بين السجون والمعتقلات.. حبيسا غائبا معزولا عن الحياة.

لكنه مع هذه العزلة استطاع أن يأنس بالشعر.. وبالحلم وإن كان مستحيلاً.. ولم يكن يملك غير ذلك يخرجه من أزمته وعزلته.